

الفصل الثامن

عودة الى حظيرة فكرة الكتاب

جمع القلم ، وشرّد الخيال ، وطاف بي الفكر في الفصول السابقة ، في مسارب مختلفة ، راجياً أن أَرْضَى في قرائى مشارب مختلفة ... ويحذر بي وجل قرائى من رجال القانون والقلم أن أعود إلى حظيرة فكرة الكتاب ! .

يلعب القضاء والقدر ، أو الصدفة كما اصطالحنا على التسمية دوراً خطيراً في تكيف المرء فيما جنوح إلى الفضيلة ، وإما جموح إلى الرذيلة .

يبدأ العامل أو الطالب حياته ، إما في مصنع ، أو متجر ، أو مدرسة يحيط به غيره من العمال أو الطلاب ، وفي هؤلاء : خيرون وأشرار ... يلعب القدر ، وتدور عجلة المصائد ، فأما صاحب الخير ، فتسرّبل بسرّبال الخير ، وأما عاشر الشرير ، فاكْتَسَب رذائل عاداته ، وهكذا تتشكل حياته المستقبلية بالشكل الذى استهل به فجرها .

كذلك الفلاح في غيطه وقريته ، فإما خالط من هو طيب قطاب خلقه ، أو العكس : وتبعاً لهذا فهو إما أن يجتذبه المجتمع إلى احترام القانون وسلوك الطريق القويم ، أو أن يهوى به خلطاؤه إلى مسرح الجريمة .

الأسرة هي العامل الأول في تكوين الإنسان ، والمصنع أو المدرسة ، أو الحقل في المرتبة التالية ، فقد يكون البيت مصلحاً ، والمرحلة التالية قاضيه على هذا الإصلاح .

وواجب الأسرة يجب أن يطرّد من الرقابة في البيت إلى الرقابة خارجه ، ومعالجة الناشئ بما ينأى به عن خلطاء السوء . وقد عملت الحكومة مشكورة على معالجة حال المشردين ، فأصبحنا اليوم لا تصادمنا تلك المناظر المؤلمة ، التي كنا نجدها من أطفال « الأرضفة » و « جامعي الأعقاب » ، نفقت وطأة وجودهم ، ولو أنها لا زالت باقية ، ونسأل الله القوى القادر أن يلهم أغنياءنا مديد المعونة لحكومتنا ، للقضاء على البقية الباقية منهم ، فينقطع بذلك تيار الأجرام في البلد (وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم !)

وفي ذا كرتى حادث حصل فى سنة ١٩٢٨ ، وكنت معاوناً
للضبط بمديرية الجيزة ، عن واقعة حال ، لمستها فى وسط هؤلاء
المشردين .

غلام اعتدى على آخر ، محدثاً به إصابات جسيمة : اتقلنا
لمحل الحادث ، فوجدنا المصاب ، وهو غلام لا يعدو الثالثة عشرة
من سنى عمره البائس ، ملقى على الأرض ، تسيل دماؤه من جرح
غائر فى جنبه الأيسر ، وسار التحقيق قدماً ، فاذا هو يسفر عن
أن بين الجانى والمصاب فتاة ، سنها لا يربو عن العاشرة ، كلاهما
متيم بها ، يضمم الشر لصاحبه ، غير أن الجانى كان أشد مراساً
وأقوى ، فاحتازها ، وطفق الجنى عليه يحتك به ويصاوله ، حتى
فرغ صبر الجانى ، فشحن سكيناً واعتدى على منافسه .
والمضحك والمبكي أن الكشف الطبى أسفر عن ان فتاة العاشرة
« امرأة » .

هؤلاء الصبية مصريون ، لحماً ودماً ، لهم مالنا من حقوق —
غير أن القدر دار بهم دورته لأسباب متعددة المناحي ، مختلفة

متشعبة ، فاذا هم في الشوارع منها مساكنهم وفيها مطاعمهم ، وعلى
أرصفتها يعقدون اجتماعاتهم ، وتتدرج بهم الفسقة والتشرد
والعوز إلى ارتكاب مالا يمكن تصوره من الجرائم : أليس هؤلاء
حقوقاً على المجتمع ؟ ١٩ .

ان بعض الآلاف التي تنفق على التمثيل السياسي — مثلا —
لو أنفقت في هذه الناحية ، لكانت أجدى وأجدر . . .

وحبذا لو راعت الحكومة والأغنياء من المصريين الذين
تتضخم ثرواتهم في « البنوك » أن ينفقوا القليل من مالهم في
هذا السبيل ، فتمحى هذه الوصمة ، وتستفيد الأمة من إنتاج
هؤلاء المشردين : وبهذا تدور عجلة القدر دورة عكسية ، كلها
الخير والبركة : فقد يكون بين هؤلاء المساكين من هو أرجح
عقلا ، وأكثر كفاية من كثير من أبناء السادة ، فان عولج في
مستهل حياته أثمر وازدهرت كفاءته وتجلت مواهبه ، فيفيد
ويستفيد : وتستطيع الحكومة والبرلمان سن تشريع ، يفرض
ضريبة على الموسرين والموظفين والمحامين ، والأطباء ، والتجار
لا تزيد عن ١ ٪ مثلا من أرباحهم ومرتباتهم وترصدها لعلاج
مشردى الأقدار ، حتى إذا ما شبوا ونجحوا ، استطاعت أن

تعرض من إنتاجهم ما أنفقته في سبيلهم ، فضلا عن أن في صلاحهم
 صلاح للمجتمع الذي نعيش فيه .

أما في الريف وفي الصعيد ، فليس أسهل على وزارة كوزارة
 الشؤون الاجتماعية ، تعاونها وزارة الداخلية من أن تعمل على
 نشر الثقافة البدائية بين الفلاحين ، فتسير بهم على هدى هذه الثقافة
 وبت ميادين الرياضة والتمثيل المنتج إلى طريق مستقيم يتعلمون
 فيه أن الخير في البعد عن الجحور إلى مهاوى الرذيلة ، وتستعين
 بالدين والوعظ والإرشاد ، إلى اقتلاع جذور تأصلت في نفوسهم
 كحب الأخذ بالثأر مثلا ، فيتعلمون أن في التسامح والإغضاء
 خير ، وأن الدين والإنسانية والمجتمع يجب أن يتغلب فيها اللين
 على الشدة ، فيدرجون على احترام القانون ، وبذلك ينخفض
 مذنب الإجرام ، ويضعف تياره ، وقد يقف ... فبدلا من
 أن يجتمع الفلاحون مثلا حول أكواب الشاي ونار « البجوزة »
 يجتمعون في ناد صغير متواضع ، حيث يجدون الرياضة بضرورها
 فتشتد سواعدهم وتصل أفكارهم : وهذا المشروع لا يكلف
 الكثير ، ويمكن أن يجمع من كل قرية أو قرى متجاورة بضع

عشرات من الجزيئات ، مع رقابة إدارية مستترة للنهوض به وتنفيذه ، وإني لقمين بنجاح هذه الفكرة ، وفي إبرازها القضاء على كثير من مناسخ الإجرام الذي يكون وليد اجتماعات الفلاحين على ضوء النار ، وحول أكواب الشاي ، وقد أطلق عليه أخيراً « الموت الأسود » .

هذه الاجتماعات يترتب عليها شر كبير : وأروى لهذه المناسبة أن فلاحاً عمره خمسة عشر عاماً ، اعتدى على أخ له فلاح من بلدة مجاورة : تمخض ذهنه المضطرب عن فكرة جهنمية هي القضاء أولاً بأول على مال الفلاح المعتدى : ففي موسم القمح وقد ازدهرت سنابله وحن قطافها ، ورأى الصبي أن فرصة قد سنحت فاستحضر « قططاً و « فيراناً ، وغمرهما « بالبترول ، وأشعل في فرائها النار ، وأطلق الجرذان والقطط مشتعلة في غيط القمح فكانت سعيراً لم تبق ولم تذر ...

وهكذا سار على هذا الدرب فاقتلع « المقاته ، وأتلف ثمار حديقة خصمه : وما أن تحقق هذا من ألعيب الصبي حتى بعث إليه من أطلق عليه عياراً نارياً ، كان فيه القاضية :

لو وجد هذا الصبي مرشداً ، أو هادياً لا أدرك أن اعتداء خصمه على أخيه ، كان من السهل علاجه بداءة ذى بدىء ، فلا اعتدى هو ، وأمعن فى اعتدائه ، وهو وليد ذهنه المريض ، ولا مات قتيلاً ، وهو فى شرح الشباب . هذا مثل والامثال كثيرة .

المرشد والهادى فى حالة الفلاح هما الدين أولاً ، وبث تعاليمه السمحة ، والرياضة بما يتركز فيها من صحة البدن والنفس : فسيروا الى الأمام أيها الحكام والأغنياء . فهذه الأفكار وغيرها يمكن تفادى عشرات الحوادث ، فيخلق جيل جديد يسير قدماً بالامة الى مناحى الرقى والفلاح ... ثم إن النظام الإدارى عندنا عليل ، يحتاج الى علاج طويل ... ولهذا النظام قواعد قديمة ، هى فى الواقع سبب من أسباب موجة اللاجرام فى الريف يمكن القضاء عليها .

فتقسيم القرى الى طوائف وشيخ بوجود الخفراء وشيوخهم ومشايخ البلاد ، وعلى رأس هذا النظام الفاسد « عمدة » : هؤلاء من أسر تنافسهم اخرى ، فترتكب على ضوء فكرة القضاء على

منصب العمدة مثلاً أو الشيخ جرائم تهز البلاد تعقبها ردود من فريق العمدة وهكذا دواليك ... وإني أقترح أن يكون الحكم في القرى محايياً وبطريق الانتخاب .. هذه الفكرة ستبدأ مضطربة مشوشة النتائج ، غير أن الوليد ينمو والضعيف يشتد ، وتقوى الثقة بالنفس ، فتصلح الأمور ، ويخف ضغط الجريمة : ومن السهل على رجال الحكم أن يستبدلوا نظام الخفراء بنظام آخر كأيجاد قوات من رجال البوليس «عساكر وصف ضباط» لمراقبة الأمن ، والضرب على أيدي العابثين به ، على أن يكون هؤلاء العساكر ورؤسائهم كثيرون التنقل ، فلا يقيمون في قرية واحدة مدة تكفي لاختلاطهم بأوساطها ، وفي نجاح هذه الفكرة قضاء على الكثير من الجرائم التي يغفل أو يتغافل الخفراء عنها .

ويمكن القضاء على جرائم كثيرة بإيجاد نظام «قاضي الصلح» في القرى بأن ينتخب من أكثرية القرية رجل يتولى الفصل في المنازعات البسيطة ، فيخمد النار بخبرته قبل استفحال شررها ، يعاونه في ذلك رجل ديني ، كما أذن الشرع مثلاً : وفي هذا كبت لجرائم خطيرة قد تكون وليدة مشكلات يسيرة .

إن احتج رجال التشريع والحكم بتدبير المال فهذه مشروعات

وأفكار لا تستنفد من المال إلا نذراً يسيراً ينتج خيراً وفيراً ،
 وأمة على رأسها المصلح العظيم ﴿فاروق﴾ حفظه الله لجديرة
 أن تتبوا بأرشاداته وأساميته ولفقاته السكريمة مقاماً محموداً ، وحبذا
 لو عمل ولاية الأمر على السير على سننه ، ففيه الخير كل الخير ،
 ويعمل كل محب لأمته منا على تقويم الأخلاق ، فحيث تقوم
 يختفي شبح الجريمة . وصدق شوقي رحمه الله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
 فإن هموا ذهب أخلاقهم ذهبوا

